فيلسوف عبري يسبق سبينوزا

باروخ سبينوزا

وان جبرول

تعليم نعمة

الفيلسوف الهولندي بندكت سبينوزا علَم من اعلام الفلسفة الحديثة له المذهب الخاص في الفلسفة والآراء والنظريات الثاقبة التي لا تزال مرجعاً سامياً في الكثير من مباحث الفلسفة الى يومنا هذا حتى لا يكاد يخلو مقال فلسفي من الاشارة الى مذهبه او احدى نظرياته

ولد سبينوزا في امستردام من اعمال هولنده عام ١٦٣٢ وهو ابن احد التجار اليهود المثرين برتوغالي الاصل وكان قد قصد والدهُ بتخريجه ان يكون يوماً مدرساً في اللاهوت بيد انهُ اذ لم يجد في تقاليد الآباء ومعتقداتهم الدينية ما يروي اوام نفسه الظامئة الى المباحث الحرة الواسعة ترك دين الاجداد وعكف على درس الفلسفة وخصوصاً فلسفة ديكارت فاضطهدهُ لذلك رؤساء الدين وطردوهُ من مجامعهم فاضطر اخيراً الى هجر امستردام واخذ يتنقل في بعض مدن هولنده حتى استقر اخيراً في الهاي حيث جعل يتعاطى بعض الاعمال لكسب معاشه ولبث فيها الى آخر ايام حياته

اما مذهبهُ الفلسفي فهو المعروف بالحلول Pantheism اي ان الكون هو الله والله هو الكون. والذي يهمنا من مذهبه في هذا المقال هو اعتبارهُ العقل والمادة واحداً او انهما وجهان او صورتان لمادة اصلية واحدة عامة . فالعقل والمادة متلازمان ابداً فلا عقل بلا مادة ولا مادة بلا عقل . انما المادة في ذاتها ليست عقلاً ولا مادة . وعندهُ ان جميع الاشياء والمخلوقات فيها شيء من العنصر العقلي او الروحي وهذا ما ذهب اليه اريسطو قديماً من وجود عنصر روحي في سائر الكائنات الحية وغير الحية انما يختلف وجود هذا العنصر قوةً وضعفاً في الموجودات فهو في الجماد غيرهُ في النبات وفي هذا غيرهُ في الحيوان والانسان

ان نظرية سبينوزا هذه مبنية على نظرية التقابل التي مرّ تفصيلها في المقال السابق الذي

نشر في العدد الاخير من المقتطف تحت عنوان « العقلي والمادي في الفلسفة الحديثة » وقد وضعت هذه النظرية على اثر نظرية الفيلسوف الفرنسي ديكارت من ان العقل والمادة شيئان مختلفان اختلافاً كلياً وليس بينهما شيء مشترك البتة ولا يوجد اي علاقة سببية او تفاعل بينهما. ومؤدى نظرية التقابل هو ان المادي والعقلي كل في دائرته الخاصة على ان كل حركة او حادث يحدث في الدائرة الواحدة يحدث ما يقابله في الدائرة الاخرى وذلك على تمام الدقة والوفاق. وقد تناول سبينوزا هاتين النظريتين وتوصل منهما الى هذه النتيجة البينة وهي انهُ اذا لم يكن من تفاعل بين العقلي والمادي وليس من علاقة سببية بينهما واذا كان ما يحصل في احدهما يحصل ما يقابله في الآخر على ادق نظام واحكام اذاً لا بد من ان يكونا شيئاً واحداً او انهما خاصتان متقارنتان او صورتان متباينتان ظاهراً لا باطناً لمادة واحدة اصلية مطلقة عامة. ويؤخذ من ذلك انهُ حيث تكون المادة فهناك العقل ايضاً وحيث يكون العقل فهناك المادة لا محالة فهما اثنان في الظاهر واحد في الحقيقة. وهذه هي الفكرة الرئيسية في فلسفة سبينوزا وهي اساس مذهبه الذي جعل له هذه الشهرة الطائرة في عالم الفلسفة

وقد اتفق لي ان عثرت مؤخراً في بعض تراجم الاعلام على مختصر سيرة الفيلسوف العربي ابن جبرول وفيها خلاصة وجيزة لمذهبه وآرائه الفلسفية نقلاً عن كتابه « ينبوع الحياة » الذي يتضمن حقيقة مذهبه وكم كان اعجابي بالفيلسوف العربي حين وقفت في تلك الخلاصة على نفس هذه الفكرة في العقل والمادة التي تعزى الى سبينوزا فقط. فعجبت ان لا يكون للفيلسوف العربي ذكر بهذا المعنى وان ينسب الفضل فيها كلهُ الى الفيلسوف الهولندي بينما ان ابن جبرول سبقهُ اليها بما ينيف عن ستماية سنة. وابن جبرول كما ورد في ملخص سيرته هو المعروف عند الافرنج باسم اويسبرون Avicebron العالم الفيلسوف اشتهر عند اهل القرون المتوسطة بكتاب سماه «ينبوع الحياة» ووثق به بعضهم فأتوا من كلامه بشواهد وعدهُ آخرون كافراً وكانوا يجهلون حقيقة حالهِ ودينهِ فلا يعرفون هل كان يهودياً او نصرانياً او مسلماً وما برح مجهول الحال حتى عثر بعض الباحثين على نسخة عبرانية من كتاب «ينبوع الحياة» مترجمة من اصله العربي فعرف ان اويسبرون المذكور هو سليمان بن يهوذا بن جبرول المعروف عند العرب بأبي ايوب سليمان بن يحيى. وكان مولد ابن جبرول بمالقة في حدود سنة ١٠٢١ للميلاد وتوفي في سنة ١٠٧٠

وهذا هو نص العبارة التي تكشف عن حقيقة مذهبه نقلاً عن ملخص الترجمة المشار اليها — ان الجنسين الروحاني والجسداني ليسا سوى نوعين من جنس ارفع منهما وهو المادة الموجودة في كل منهما وان المادة الهيولية والمادة الروحانية ليستا سوى جزئين من المادة العامة والمراد

هنا بالمادة على مذهب الحكماء المشاة احدى علل الوجود وعنده ان مادة واحدة او جوهراً واحداً يكون قياماً للعالم الارضي والعالم العقلي وقد استند في ذلك الى دليل قاطع فقال « انهُ مما اجمعوا عليهِ (يريد فلاسفة اليونان وبالاخص زعماء الافلاطونية الجديدة) ان العالم العقلي هو علة العالم الحسي وكل معلول لا بد لهُ من بعض اشتراكة لعلتهِ في الطبيعة ولو لم تكن هذه المشاركة لامتنع حصول الفعل فان كان في كل شيء من هذا العالم مادة وصورة ولم تكن تلك المادة في العالم العلوي فكيف امكن تولدها وكيف يصح ان يقال ان علتها في العالم العلوي ولا يصح الاعتراض بأن الجواهر الروحانية بسيطة وما سواها مركب لان بساطتها انما هي بالنسبة الى ما كان من دونها من الجواهر ولكنها مركبة حقيقة بالنسبة الى وحدة الخالق المطلقة » . وبالجملة انهُ اعتبر وجود مادة واحدة عامة في كل موجود حاشا الخالق وان هذه المادة هي قيام عالم الارواح والاجساد . يتضح من هذه العبارة ان ابن جبرول كان يعتقد بوجود مادة واحدة عامة لا نوعين من المادة كما كان يظن فلاسفة عصره والذين تقدموهُ وهو عين ما ذهب اليهِ سبينوزا على انهُ وان يكن ابن جبرول قد توصل الى هذه النتيجة من غير الطريق والدليل الذي توصل منهُ سبينوزا فالنتيجة واحدة كما لا يخفى ولا عبرة بالطريقة الاستقرائية فلكل طريقتهُ الخاصة . ولقد رجحت بعد اطلاعي على مذهب ابن جبرول هذا في المادة الى مشهوري فلاسفة اليونان مثل افلاطون واريسطو وزعماء الافلاطونية الجديدة الذين اعلم ان فلاسفة العرب نقلوا عنهم الشيء الكثير على اثر هذه الفكرة في مذاهبهم وآرائهم فلم اقف على شيء من ذلك فأيقنت ان الفكرة هي من بنات افكار فيلسوفنا العربي الكبير وقلت انهُ من الظلم ان لا يذكر بالفضل ذووهُ . وليس من قصدي الحط من مأثرة الفيلسوف الهولندي الكبير ولكن ارى من الواجب انهُ اذا ذكر اسم سبينوزا بهذا الصدد ان يقرن الى ذكر اسم ابن جبرول . وليس اسم ابن جبرول بالمجهول عند فلاسفة الغرب فقد كان لهُ مناظرات ذات شأن مع اكبر فلاسفة الاجيال الوسطى اعني القديس توما والبرت الكبير [1] وغيرهم فليس بالمعقول ان يكون الغرب يجهل آراء ابن جبرول

***

اما خطر هذه الفكرة وقيمتها الفلسفية فهي انها جعلت المبدأ العقلي والمادي في مستوى واحد بعد ان كان العالم لا يفكر الا بالاشياء الحسية فأصبحت الفكرة مجالاً للبدإ العقلي وأصبحت حقيقة

(١) القديس توما هو الفيلسوف توما الاكويني الشهير وقد كان هو واستاذه البرت الكبير من اشد خصوم ابن جبرول فيرد ان روجر باكون الفيلسوف الانكليزي كان من انصاره وقد قبل آراء ابن جبرول بجملتها بعد ان عدل فيها قليلا ورد بحماسة على من ناقضه

ملموسة بعد ان كان ينشأها الشيء الكثير من الغموض والابهام . ولم يقف الامر عند هذا الحد فان متتبع الآراء الفلسفية في ادوارها المتسلسلة لا يلبث ان يلحظ أن المبدأ العقلي اخذ بالتغلب رويداً رويداً على المبدأ المادي حتى كاد يلاشيه من عالم الوجود كما يظهر من فلسفة شتنغ وهيجل وفيخته وجميعهم من اعاظم الفلاسفة المحدثين . وقد تبين مما تقدم ان العقل والمادي» ان الفيلسوف ليبنز قال باجتماع الضدين في الجوهر الفرد الا انهُ حكم بتغلب العنصر العقلي على المادي وتقدمه عليه . ثم ان الفيلسوف الالماني كانت جعل القوة الادبية او الضمير الانساني لباب الوجود . كما جعل يتشه القوة . وشوبنهور الارادة . وسبنسر القوة المجهولة . وكل هذه من الامور المعنوية العقلية كما لا يخفى . أوليس ان في الرأي العلمي الحديث تنازع البقاء ما يشف عن معنى ارادة البقاء وحبه ؟ أليس هذا ايضاً من الامور المعنوية العقلية ؟

وللفيلسوف العربي ابن جبرول آراء وافكار غير هذه جديرة بكل اعجاب ولها قيمتها الفلسفية الخاصة . فقد ورد مثلاً في خلاصة مذهبه هذه العبارة : « ان المادة الطبيعية اي الجوهر المنتشر يتحرك ليتخذ صورة العناصر الاربعة (اي الهواء والماء الخ) ثم يرغب في اتخاذ صورة الجماد ثم النبات ثم الحيوان ثم يطمح الى الامتزاج بالعقل والارتفاع الى ذلك العقل العام الذي هو منتهى كل الارتقاء واليهِ تنتهي كل حركة » . أليس في عبارته هذه دلالة واضحة على مذهب الارتقاء من المادة الترابية الى جوهر العقل الانساني . أوليست هذه هي الفكرة الرئيسية في مذهب هيجل في مادة الكون والارتقاء الدائم ذلك المذهب الذي كانت لهُ السيادة التامة حتى أواخر القرن الماضي ولا يزال لهُ شأنهُ الكبير الى يومنا الحاضر ؟ ولا سيما ان ابن جبرول يذهب الى ان « المادة هي قوى روحانية عقلية الطبيعة غير حسية لا يتيسر ادراك كنهها بالتصور » فكأنهُ وضع بقوله هذا جرثومة المذهب الروحي الذي كان جوهر فلسفة الفلاسفة الالمان من عصر كانت الى هيجل وهارتمان وشوبنهور

***

هذا ما أردت بيانهُ اقراراً بفضل هذا الفيلسوف العربي الكبير ورغبةً في تعريفهِ الى أبناء العربية في مختلف الاقطار . وانهُ لمن دواعي الاسف الا يكون أبناء الضاد يعرفون من أمر نوابغهم أكثر مما يعرفون ولكن لا أقل من أن يحيا ذكر أولئك النوابغ العظام في أذهان أدباء العربية وأبنائها المثقفين . أليس لارباب الفلسفة والحكمة المشرقية إسوةٌ بأرباب الشعر الذين نروي أشعارهم ونجلّ آثارهم